الاراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

كسر النوافذ..يبقى الهدف على قيد الحياة

علي عبد السادة
كاتب

كانت عبارة:"بن لادن يرتعد من الخوف ويختبىء في كهوف أفغانستان"، الأكثر استخداما من قبل وسائل الإعلام الأمريكية، بل تلك المرتبطة، بشكل من الأشكال، بالبيت الأبيض، خلال السنوات الثلاث التي أعقبت أحداث الحادي عشر من ايلول. ويفسر هذا "التسويق الإعلامي" على انه رغبة أمريكية في إيصال فكرة "النصر" للمتلقي الأمريكي، الذي يرتبط، عضويا، بهذا التسويق. فهو جزء من الماكنة العسكرية التي روج إلى أنها من حققت النصر ضد القاعدة، من جهة. وهو ذاته من يبحث عن إجابة من البيت الأبيض حول ما تحقق، على صعيد الامن الوطني الامريكي، إزاء تفجيرات نيويورك وضحاياها، من جهة أخرى. ولكنه من الواضح، خصوصا بعد علم ٢٠٠٤، ان تقارير المؤسسة العسكرية كانت تقول غير ذلك، فان قصيدة لأبن لادن، وجهها لأبنه ورد فيها عبارة "أسلحة الدمار الشامل"، نشرت قبل ثلاثة أعوام، كانت كافية لتوجيه السكان المحليين بشراء واقيات ضد الغازات السامة.

وأزعم، هنا، بان البيت الأبيض قد تعمد صناعة شخصية غير واقعية لاسامة بن لادن، وبالتالي صورة تنظيم عسكري يمتلك من القوة والامكانات ما تتعمد واشنطن تجاهله-نتذكر هنا ما قاله مسؤول في البيت الأبيض عندما قال بأن :"بن لادن سيركب بعيره ويأتي بها إلى هنا، واشنطن، ويعتذر إلى الرئيس ويعلن الاستسلام"- وان كل الفعاليات العسكرية قد انصبت على ضرب رموز القاعدة في أفغانستان والعراق، والخطوط الرئيسية الناقلة لموارد القاعدة، والمناهج التعليمية التي تدعم أفكار القاعدة، والصفقات التجارية التي يقودها أفراد معينون في هذا التنظيم، فيما تجاهلت، أو تعمدت تجاهل، أمرين مهمين.

ربما يكون الأول، هو ذلك المتعلق بالتركيبة العقائدية لمؤيدي القاعدة، فأسامة بن لادن يستغل في الروح الثأرية لمريدي التنظيم، ذلك الجزء المتعلق بما يردده من كلمات وعبارات تمس مواقع مؤثرة في العقلية الدينية للفرد المسلم، بالذات في المنطقة العربية، ويمكن القول بأن عبارات:"محو الإسلام من على وجه الأرض"، " الصليبيين والحملات التي قادوها"، "السكوت على أفعال الصهوينية"، " الجهاد والحصول على الجنة" (نصوص غير حرفية من رسائل متفرقة لبن لادن)، يمكن القول بان هذه العبارات لا يمكن إغفال تأثيرها على الفرد الواقع تحت سلسلة من تراكمات القمع السياسي والاجتماعي وسوء تسويق تجربة الإصلاح والتنمية، عبر نماذج وطنية، في بلدان العالم الثالث، وهو المستعد، دوما، لفكرة المخلص، المنقذ. لذا فان ضرب الخطوط الرئيسية، أو ما يسميه الإعلام بالهدف اللوجستي، قد لا يبلغ تأثيره درجة كبيرة مقارنة شبكة علاقات اجتماعية قائمة على دعم فكرة "دينية" سوقها بن لادن بشكل ذكي.

الأمر الثاني، هو المتعلق بما عمقته واشنطن من ردود فعل عنيفة لدى أوساط (أفراد ومجموعات سكانية وتركيبات سياسية مختلفة احتضنت وعيا جمعيا ضد واشنطن)، لا علاقة تنظيمية لها بالقاعدة، إلا إن الأخيرة حازت على تأييدهم بفعل العمل العسكري المفرط في قوته، والمتجاهل لحجم ردود الفعل تلك- على سبيل المثال رصد الكونغرس الأمريكي في عام ٢٠٠٤ مبلغ ٤٠٥ مليارات دولار لمنظومة صواريخ مخصصة، فقط، لضرب ملاجىء محصنة للقاعدة، في وقت يتحدث فيه البيت الأبيض عن رجل مطلوب عالميا يوجد في أفغانستان في مكان ما، في كهف ما!-، مما يعني إن قابلية احتواء تنظيم يختبىء في كهوف في أفغانستان، أمر قد يبدو مستحيلا، في الأقل في الوضع الراهن. فالأمر بات يتعلق بتنظيم مؤلف من شبكة رموز والخطوط القيادية المرتبطة بها، وشبكة أخرى تتألف من مجوعات هائلة من المؤيدين لم يسبق لهم الاتصال بهذه الرموز.

وعندما نتحدث عن تعمد أمريكي لخلق صورة مغايرة عن حقيقة تنظيم القاعدة، فأن الأمر يتعلق بتغير ستراتيجي في منحى ما أسمته واشنطن بـ"الحرب على الإرهاب"، عندما تحول شعارها من الفعل العسكري المجرد ضد مجموعات كانت قد سلحتها بداية الثمانينيات، إلى شعار الإصلاح وتجارب الديمقراطية، مما حول الصراع من شكله التقليدي إلى شكل أخر معقد، تتشابك فيه النماذج الوطنية في الإصلاح والتغيير، وتوسيع رقعة الصراع التقليدي الأول إلى مستوى عالمي أخر، لتداخل الصراعات السياسية بالشرق الأوسط مع النموذج الأمريكي الجديد في الصراع، ويمكن القول بان "عولمة" من شكل أخر، وظفتها واشنطن لتعميم حربها، لإشراك حلفاء جدد، وخلق أعداء أضافيين.

وأعتقد، غير جازم، بان خلق "عدو"- ينتقل من مرحلة التنظيم الصغير إلى قوة عالمية يمكنها أن تنفذ أي عملية في أي مكان، يدعم ضرورة بقائها كقوة سياسية-عسكرية في المنطقة، وتسويق ذلك على انه وجود لحماية نماذج جديدة في الإصلاح والديمقراطية، وهو ما تطرح واشنطن نفسها كرائدة له لضمان رقعة نفوذ أخرى، بموارد إضافية، ونموذج سياسي حليف يوسع رقعة الرؤية الأمريكية في الشرق الأوسط.

ولا اعتقد، بناء على تلك الرؤى، بأن الفعل الأمريكي الراهن قد يؤدي، على المدى القريب، إلى تحقيق نتائج ملحوظة على صعيد كبح جماح تنظيم القاعدة، فالرؤية التي أطرحها، تفيد بان من مصلحة البيت الأبيض إدامة صراع من هذا النوع حتى أشعار يفيد بتحقق الأهداف المرسومة من الشرق الأوسط، وان كل ما تقوم به أمريكا من فعل عسكري، قد لا يتجاوز كونه كسرا للنوافذ من دون تحطيم المبنى بشكل كامل، ما يعني أن إبقاء الخوف من القاعدة على قيد الحياة، ضروري لصناعة شرق أوسط كبير.

العلمانية .. هي الحل

عمران سلمان
امريكا

نعم العلمانية هي الحل، ولكن ليس في مواجهة شعار "الإسلام .. هو الحل". فالعلمانية ليست موازية للإسلام أو معاكسة له. فهما من جنسين مختلفين. الأول دين بينما الثانية تنظيم مدني.

ولهذا يصدق القول بأن الإنسان يمكنه أن يكون متدينا وعلمانيا في الوقت نفسه. كما أنه ليس كل علماني هو ضد الدين. أو كل متدين هو ضد العلمانية.

وحين نقول إن العلمانية هي الحل، فنحن نقصد أنها حل للصراعات الدينية والطائفية في منطقتنا، ووقف للهدر في الطاقات والإمكانيات ووقت البشر الذي يضيع نتيجة المشاحنات والنزاعات ذات الطابع الديني.

لكن قبل الاسترسال في الحديث من الإنصاف أن نجيب على السؤال التالي: أي علمانية نقصد؟

هل هي تلك التي يقدمها بعض رموز الإسلام السياسي، ويصرون فيها على أنها تعني فصل الدين والشؤون الدينية عن الحياة؟ أي إقصاء للدين من حياة الناس؟

المؤسف أن الغبار الكثيف الذي أثاره ويثيره الإسلاميون (وليس المسلمين) حول العلمانية منذ عقود، تمكن من حجب أهم معانيها وطبيعتها لدى العامة.

عامة الناس اصبحوا بنتيجة حملات التزييف والتضليل يرددون بأن العلمانية هي فصل الدين عن الحياة.

العلمانية التي نقصدها والتي يفهمها معظم سكان العالم هي فصل المؤسسة الدينية عن المؤسسة السياسية (وليس الدين عن السياسة) وبين رجل الدين ورجل السياسة، والعكس صحيح ايضا، أي إبعاد المؤسسة السياسية عن التأثير في المؤسسة الدينية، وابعاد رجل السياسة عن فرض ميوله الدينية.

هذا هو التعريف الذي نصادفه في جميع المراجع الأجنبية تقريبا. أما المراجع العربية فيندر فيها ذلك. من الطريف أنني لدى بحثي عن معنى العلمانية وجدت في موقع موسوعة الويكيبيديا على الانترنيت، ان تعريف العلمانية مختلف في اللغة العربية عنه في الانجليزية تماما.

في التعريف العربي نقرأ: "تأتي كلمة "علمانية" من الكلمة الإنجليزية"Secularismسيكيولاريزم) وتعني إقصاء الدين والمعتقدات الدينية عن أمور الحياة. ينطبق نِفسِ المفهوم على الكون والأجرامِ السماوية عندما يُفسر بصورة مادية بحتة بعيداً عن تدخل الدين في محاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته".

أما في التعريف الانجليزي (الترجمة من عندنا) فنقرأ: العلمانية Secularism في الاستخدام الحديث يمكن تعريفها إجمالا بطريقتين: الأولى، التأكيد على حرية التدين، وعدم فرض الحكومة لدين معين على الناس، وأن تكون الدولة محايدة في شؤون الاعتقاد، ولا تمنح امتيازات حكومية أو إعانات لأتباع الأديان.

والثانية، تشير الى الاعتقاد بأن نشاطات الإنسان وقرارته، لا سيما السياسية منها، ينبغي أن تستند إلى الأدلة والحقائق، وليس التأثيرات الدينية.

وما يبدو واضحا من المعنيين، هو أن النص الأول يقول إن العلمانية هي إقصاء الدين عن أمور الحياة، وبالتالي فالعلمانية هي ضد الدين وعامل نفي له.

بينما التعريف الثاني يشدد على حياد الدولة في شؤون الدين، وإبعاد الدين عن المجال السياسي.

طبعا بما أن الويكيبيديا هي موسوعة مفتوحة على الانترنيت ويستطيع أي شخص أن يضيف أو يعدل فيها، فلا استبعد أن ممثلي الاسلام السياسي، أدخلوا مفهومهم للعلمانية هنا ايضا، كما فعلوا في المؤلفات والنصوص الاخرى بالعربية.

بينما لم يتمكنوا من ذلك في النسخة الانجليزين ربما لعدم اهتمامهم بالأمر، أو ربما بسبب معرفتهم باستحالة تضليل قراء يعرفون ويمارسون العلمانية في شؤون حياتهم.

هذا على مستوى المصطلح، أما على مستوى الواقع العملي، فنجد أيضا أن ممارسة العلمانية تعني خلاف ما يقوله منظرو الإسلام السياسي.

وسواء في أوروبا أو أمريكا فإن العلمانية لم تعن في اي وقت إقصاء الدين عن الحياة. بدليل وجود المؤسسات الدينية من كنائس ومساجد ومعابد يهودية وبوذية وهندوسية ... الخ. وبدليل ممارسة أتباع هذه الاديان طقوسهم بحرية تامة، وفي ظل حماية الدولة.

بل أنه في بلد مثل أمريكا يجري على الدوام التذكير واحياء المناسبات الدينية لمعظم الأديان. ويشجع المسؤولون الرسميون سواء على المستوى الفيدرالي أوالمحلي الناس على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم ذات المنشأ الديني.

كما يقوم المسؤولون بزيارة دور العبادة، والاجتماع مع ممثليها، في لفتات رمزية على الترحيب والاحترام.

وفي المناسبات الوطنية الكبيرة يدعى ممثلو الأديان الرئيسية الى الحضور والقاء كلمات.

وحتى في بلد يوصف بالتشدد في تطبيقه للعلمانية مثل فرنسا، لا يوجد اي إقصاء للدين عن الحياة أو شؤون الحياة.

فهناك أيضا يمارس الناس من مختلف الأديان، بمن فيهم المسلمون، عباداتهم وشؤون دينهم بحرية، وهم منظمون على المستوى المحلي، ولهم جمعياتهم ومؤسساتهم الدينية.

لكن بالطبع في جميع هذه البلدان لا يسمح أيضا بتداخل الديني والسياسي، كما لا يسمح بفرض اي دين أو معتقدات دينية على الآخرين، كما يحظر على الدولة والحكومة أن تحابي ديناً معيناً حتى ولو كان معتنقوه يشكلون الأغلبية في هذا البلد، أو تميزاً ضد دين آخر حتى وإن كان عدد أتباعه لا يزيد على عدد اصابع اليد الواحدة.

والملاحظ أيضا هو ان التدين لا يقل أو يضعف حيث يجري تطبيق العلمانية، كما أنه لم يثبت ان زاد التدين في البلدان التي لا تطبق العلمانية.

أما المتضررون من العلمانية فهم ليسوا عامة الناس، وإنما هم رجال الدين والمؤسسة الدينية. فهؤلاء اعتادوا على مر التاريخ أن تكون لهم سلطة وامتيازات في مواجهة العامة، يستمدونها من موقعهم الديني.

في ظل العلمانية يعود رجل الدين إلى دوره وحجمه الطبيعي، وهو التخصص في شؤون العقيدة وتكون ساحته هي المؤسسة الدينية، ويكون الإنسان المواطن، حر في ان يذهب إلى هذه المؤسسة أو لا يذهب، يأخذ برأي رجل الدين أو لا يأخذ.

وليس للدولة أن تعاقبه أو تحد من حرية لهذا السبب، كما أنه ليس لها أن تكافئه على هذا السلوك. فالدولة محايدة تجاه شؤون العقيدة والاعتقاد.

وقصارى القول إن العلمانية في حقيقتها ليست موجهة ضد الدين، فهي ليست دينا آخر، ولكنها وسيلة لتنظيم العلاقة بين السياسي والديني.

وقد أصبح وجودها ضرورة بعد نشوء الدولة الحديثة، التي باتت تتكون من جمهور المواطنين، بديلا عن جماعة المؤمنين، كما في الدولة القديمة.

ولأن الأساس في المواطنة هو انتماء المواطن الى الدولة والخضوع لقوانينها، في مقابل حمايتها له، على عكس الدولة القديمة (ما قبل الحديثة) التي كانت تقوم على الانتماء الديني، فإن فصل المؤسسة الدينية عن المؤسسة السياسية، يهدف في الأساس إلى حماية فكرة المواطنة وترسيخها. أي حماية أحد ابرز الأسس للدولة الحديثة.

ولما كان الأمر كذلك، فإنه تصبح العلمانية شرطا لا بد منه للانتقال من دولة الأديان إلى دولة الأوطان، ومن دولة المتدينين إلى دولة المواطنين، ولذلك قلنا إنها الحل.

الدولة القومية ومعوقات التحقق

د. رضا الموسوي
اكاديمي

يعالج كتاب ازمة الدولة القومية المعاصرة أهم المواضيع الأساسية في عالم السياسة اليوم، وخلال تناوله الموضوع يقوم محرره، جامع مقالاته وأحد كتابه جون دان بطرح التساؤل التالي" هل تعاني الدولة القومية أزمة؟ "

ولعل طرح مثل هذا التساؤل من قبل جون دان اشارة الى أن الاجابة عليه فيها نوع من الصعوبة، فلقد نظرت وسائل الاعلام المختلفة لهذا الموضوع بنظرة ضبابية وسوداوية شاركتها في ذلك النظريات التي وضعت في الغرض نفسه. لكن حتى الان لم تتضح ملامح هذه الأزمة وأية دولة قومية تعاني منها؟ وهل أن هذه الأزمة تعمل على إزالة واضمحلال الدولة القومية؟

ان جون دان وفي مقدمته لهذه المقالات يذكر الكثير من المشاكل المعاصرة التي تواجه الدولة القومية والتي تجعلها تشعر بالقلق حيالها مالم تسارع في حلها وتجاوزها.

يقول لنا في هذا المجال:

ان ما تشعر به الدولة القومية المعاصرة من أزمات ناتج عن متغيرين اساسيين اولهما ضبابية النظريات التي تضمن شرعية هذه الدولة القومية في كثير من بقاع العالم، وبخاصة في المناطق التي تشهد صراعات عسكرية. اما المتغير الثاني فهو بسبب ارتفاع مستوى الوعي تجاه المشكلات السياسية والثقافية والاقتصادية والتواجد العسكري الجديد خاصة مايحدث في مناطق الحدود القومية التي لم تقم بحل مشاكلها حتى الان.

ولو نظرنا الى الأزمة بهذا المنظار فان فهمها حتماً سيكون يسيرا علينا. فهذه الأزمة سياسية قبل كل شيء او على حد قول" دان " ازمة تحت أطر سياسية. لقد جمع هذا الكتاب مقالات متعددة القيت بمؤتمر دولي عقد تحت العنوان نفسه عام ١٩٩٣ في جامعة" كامبرج " وقد احتوى بعد المقدمة . على عشر مقالات منفصلة خصت بالبحث والدراسة دولاً مثل الولايات المتحدة الامريكية . روسيا، الهند، كندا في حين تناولت المقالات الاخرى مواضيع التسلح في اسيا ودول الجنوب والبيئة وغيرها من المواضيع. المقالة الاولى فيه لجون دان جامع الكتاب نفسه، جاءت تحت عنوان" ازمة الدولة القومية " قدم فيها دراسة نظرية يطرح فيها بدقة موضوع أزمة الدولة القومية المعاصرة، كذلك يضمنها تعريفاً لمفاهيم الدولة القومية حيث يطرح تساؤلات مثل: ما المشكلة الحقيقية التي تعانيها الدولة القومية؟ وفي اي المناطق توجد مثل هذه الأزمات، ثم يقوم بتوضيح مستويات هذه الأزمة المختلفة ومشاكل التعايش الفيما بيني في مناطق مختلفة من العالم.

المقالة الثانية بعنوان" الدولة القومية الفيدرالية في امريكا، ازمات مابعد عصر الامبريالية " بقلم ديفيد كالو الذي بدأها بتساؤله التالي:" هل كانت الحرب الباردة تعني انتصار قوة عالمية كبيرة على اخرى؟ أم أن ماحدث هو في الواقع افول وزوال لكلتا القوتين "، بعدها يعالج الكاتب المشاكل التي من المحتمل ان تواجه الدولة القومية في امريكا .المقالة الثالثة عنونت بـ " روسيا وأزمة الدولة القومية في عصر مابعد الامبريالية " بقلم الكاتب" جان باير " الذي عبر فيها عن اعتقاده بأن الأزمة في روسيا لم تكن مجموعة من التنافرات والتحديات التي واجهت المجتمع الروسي، وانما هي أزمة مرحلية مؤثرة حدثت بسبب جملة من المتغيرات، تركت اثرها في بنى المجتمع الروسي، ويؤكد الكاتب ان هذه الأزمات، مهما اتسعت فانها تبشر بظهور سياسي جديد، يوضح أزمة الهوية الروسية ودولتها القومية.

مقالة وليام فالاك الرابعة عنوانها" انسحاب الدولة القومية في اوروبا الشرقية " وهي دراسة تاريخية لهذه القضية خلال الأعوام(١٩٤٥ .١٩٩٣م).

يقدم فالاك في القسم الاول من مقالته دراسة لقضية الدولة القومية والتلاحم الاوروبي الغربي معربا عن اعتقاده بأن الصراع بين التلاحم والدولة القومية على جميع الصعد الدولية يعد من أهم المواضيع في كل الدراسات التي تتناول توسع النظام السياسي لاوروبا منذ فترة الحروب العالمية وليومنا هذا، ويثير بدوره السؤال الآتي: "الى اي مدى ساهم التلاحم في اوروبا في تحليل ميزان القوى القومية وأدى الى ظهور الدولة الأوروبية الفيدرالية؟"

لكن جيمس تولى يبحث في مقالته التي تأتي الخامسة بالترتيب تحت عنوان" أزمة تعيين الهوية في كندا " التنوع الثقافي الكبيرعند أبناء الوطن الواحد في كندا.

والتعقيدات التي اعترضت الطريق في هذا المجال وتأثيرها على نظام الدولة القومية يقول لنا" ان الدولة القومية الحديثة أبدت تسهيلات وفهماً متقابلاً لمختلف ثقافاتها وهوياتها، وأقامت علاقات كبيرة وكثيرة بين افراد مجتمعاها ".

الأزمات العسكرية التي تواجه الدولة القومية وهل تكون آسيا مختلفة عن اوروبا " هذا عنوان المقالة السادسة التي ضمها الكتاب بقلم (بول براكن) الذي قام فيها بدراسة الازمات التي تأخذ طابعا عسكريا في الدول القومية في قارة آسيا والمستجدات الكبيرة التي شهدتها هذه القارة وجوانبها التاريخية.

وفي محصلة استنتاجية نهائية توصل لها براكن كتب يقول" إن على آسيا ان تنسق مع العالم جوانبها الاقتصادية والعسكرية وأن تأخذ بنظر الاعتبار مايجري من تطورات يشهدها العالم "

المقالة السابعة مقالة الكاتب(سود بيتا خافيرا آبه) عنوانها(أزمة الدولة القومية في الهند) خصها لبحث جذور الأزمة في الهند، اذ بدأها بمقدمة فصل فيها مفهوم الدولة القومية وعلاقته بالحركة القومية العالمية والظروف التاريخية المعاصرة لمجتمع الهند، لتأتي بعد ذلك مقالة (جفري هاثورن) في الترتيب الثامن وعنوانها " أزمة دول الجنوب " التي يتناول فيها بالبحث والتحليل الجذور الاقتصادية للقضية في دول الجنوب ومسؤوليات هذه الدول تجاه الدول القومية التي هي في الواقع دول في مرحلة التوسع.المقالة التاسعة عنوانها" الأزمة والبيئة " وتبحث هذه المقالة في مشكلات البيئة التي تتزايد يوما بعد يوم وبحدة، أصبحت الدول القومية تعانيها في عصرنا هذا، ويرى كاتب هذه المقالة أن هنالك صراعا جديا بين دول تعد منتجة للتلوث واحداث أضرار في البيئة، ودول أخرى تقوم باصلاح وترميم الأضرار التي أحدثتها الدول، ويرى الكاتب أن إصلاح هذه الأضرار لن يتم بصورة كاملة الا اذا تعاونت الدول القومية مع الدول التي تقوم باصلاح أضرار البيئة. المقالة العاشرة وهي الأخيرة بقلم (استيفان هونت) تحت عنوان "ازمة الانسان المجزأ المستمرة" تناول فيها بالدراسة أزمة الدول القومية مروراً بموضوع الملكية، ثم قدم آراء الفيلسوف (هوبز) حول الأخلاق وموضوع الجمهوريات القديمة وعصر القوميين في مقالة تعد الأطول نسبياً في هذا الكتاب.

زكية زكي.. إغتيال امرأة شجاعة

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

في أواخر الشهر الماضي أطلق الطبيب الأفغاني المقيم في الولايات المتحدة خالد حسيني عمله الروائي الثاني تحت عنوان " ألف شمس مشرقة ". و مثل روايته الأولى "طواف الطائرة الورقية" التي أطلقها في عام ٢٠٠٣ فظلت على مدى عامين من ضمن أكثر الكتب مبيعا في العالم، بدليل طباعة أكثر من أربعة ملايين نسخة منها، جاءت الرواية الجديدة لتتناول صورا من العلاقات الإنسانية المضطربة على خلفية الأحداث التاريخية والتحولات السياسية التي شهدتها أفغانستان ما بين عامي ١٩٥٩ و ٢٠٠٣، مع فارق أن مضمون العمل الأول كان عن علاقة جمعت ما بين صبيين، بينما الكتاب الثاني يتناول صداقة جمعت ما بين امرأتين لكل منهما خلفية اجتماعية وثقافية مختلفة، لكنهما تلتقيان في تجسيد طموحات المرأة الأفغانية الباحثة عن الحرية و الانعتاق من اسر التقاليد الظالمة وهيمنة الذكورة المتشددة.

ولو أن المؤلف تأخر بضعة أسابيع في إطلاق عمله الثاني، لكان حتما أضاف إليه صورا جديدة من واقع ما تعرضت له اثنتان من نساء بلاده النجيبات مؤخرا. فمن بعد قيام مجهولين باغتيال مذيعة الأخبار الشابة في قناة "شمشاد" التلفزيونية الخاصة شكيبة سانجا أماج (٢٢ عاما) في منزلها في كابول في ١٣ أيار المنصرم، قام متشددون يعتقد لأنهم من أتباع نظام طالبان البائد في السادس من حزيران الجاري باقتحام منزل التربوية و المذيعة زكية زكي (٣٥) عاماً في شمال كابول و افرغوا في جسدها بوحشية ثماني رصاصات على مرأى و مسمع من صغيرها ذي السنوات الثماني، من دون أن تدق قلوبهم لصرخات ودموع و توسلات الأخير.

وبطبيعة الحال فان ما حدث لزكية، التي نعاها بيان رسمي من منظمة اليونيسكو، حدث من قبل وبصور مختلفة للكثيرات غيرها من نساء أفغانستان ممن تحدين القهر والإذلال وامتلكن الجرأة لمقاومة الفرمانات الخاصة بالتزام المنزل وعدم الخروج للعمل أو الدراسة أو التسوق وعدم الاختلاط أو التحدث مع الغرباء أو ارتداء الملابس غير التقليدية أو وضع المساحيق أو الاستماع إلى الموسيقى طوال سنوات حكم طالبان الأرعن ما بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠٠١ تشهد على ذلك الصور الموثقة الكثيرة لعمليات إعدام النساء في ستاد كابول الرياضي أو غيره.

غير أن حادثة تصفية هذه السيدة لها دلالات مختلفة، و يمكن إدراجها ضمن محاولات الطالبانيين وأشباههم من قوى الإسلام السياسي المتشددة التي تعي جيدا دور جهازي الإعلام و التربية في تشكيل ثقافة المجتمع، فتستميت من اجل الهيمنة و فرض الوصاية عليهما، فان حالت الظروف دون ذلك لجأت إلى إخماد صوت العاملين فيهما، و لاسيما الإعلاميات و التربويات من ذوي الفكر المنفتح والمبادرات الجريئة، بالتهديد و القتل.

وزكية لم تكن بطبيعة الحال مجرد امرأة أفغانية عادية مهمومة بقوتها و قوت عيالها، و إلا لما صارت هدفا للتصفية، وإنما كانت من أولئك الطليعيات اللواتي أخذن على عاتقهن في حقبة ما بعد طالبان الاضطلاع بمهام تنوير المجتمع و تثقيفه وإطلاعه على حقوقه الآدمية من خلال العمل في مجالي التربية والإعلام. ليس ذلك فحسب، وإنما امتلكت أيضا شخصية قوية ذات ملكات ومواهب متعددة و قدرات مشهودة على إطلاق المبادرات، يسندها تفاؤل دائم بمستقبل أكثر إشراقا لوطنها، و تعززها روح جميلة منفتحة على كل الأطياف.

فأثناء محاولات الطالبانيين في عام ١٩٩٧ التقدم شمالا لاكتساح مواقع الزعيم الراحل احمد شاه مسعود، وعلى خلاف الأخريات اللواتي هجرن منازلهن ورحلن بعيدا، لم تأبه بما كان يدور حولها من قصف صاروخي وإحراق للمزارع، وفضلت البقاء داخل منزلها مع أطفالها ومواشيها، برغم ندرة الطعام و شح المياه، و ذلك من منطلق تفاؤلها بأن الأيام الصعبة لا بد و أن تتلوها أيام جميلة. و هو ما حدث فعلا بعد سبعة اشهر حينما تم إجبار الميليشيات الطالبانية على التقهقر وعاد زوجها من جبهة القتال سليما إلا من بعض الإصابات التي لم تكن تختلف عما أصاب جسده طوال ٢٨ عاما من القتال في جبهات مختلفة.

وحينما أزيح كابوس طالبان عن البلاد في عام ٢٠٠١ بادرت إلى إطلاق إذاعة محلية بقوة ٥٠٠ كيلووات و يصل بثها إلى كابول و خمس ولايات أخرى تحت اسم "راديو صلح" أو إذاعة السلام، و ذلك إيمانا منها بان البث الإذاعي هو وسيلة نموذجية في بلد يعج بالأميين و الأميات كأفغانستان لمد الناس بآخر التطورات، وتحريرهم من الأوهام والخرافات والتقاليد البالية، وتعويدهم على التفكير المستقل والحوار الديمقراطي، وتشجيع النساء على الاضطلاع بدور محوري في المجتمع، وإطلاعهن على حقوقهن المنتهكة. ومن هنا فان أكثر ما ركزت عليه زكية في إذاعتها إلى جانب الفقرات الدينية والموسيقية، كان البرامج الحوارية من خلال تضييف نماذج حية من الأفغانيات الناجحات في ميادين العمل المختلفة، وبرامج تلقي الرسائل والمكالمات الهاتفية حول المشاكل والصعوبات التي تواجه المرأة الأفغانية في البيئة الحالية المضطربة. وبرغم المصاعب المالية التي واجهتها بسبب خلو إذاعتها من الإعلانات التجارية إلا لماما، والتي لم تخفف منها مسارعة محبي برامجها الكثر إلى مد يد العون، وبرغم التهديدات المتتالية من القوى القبلية المحافظة بإخراس إذاعتها، فإنها ظلت مؤمنة بفكرتها ومستمرة في عملها بحماس و نشاط.

غير أن هذا لم يكن نشاطها الوحيد. فإضافة إلى عملها الإذاعي بمساندة من زوجها وطاقم مكون من ٨ مراسلين ومحررين للأخبار، عملت زكية بالتزامن كمديرة لإحدى مدارس البنات في منطقة "جبل سراجي" بولاية "باروان"، وسط ظروف صعبة ناجمة عن إحجام الكثيرين عن إرسال بناتهم إلى معاهد العلم، فضلا عن النقص الكبير في الكتب المدرسية ووسائل التربية الحديثة وافتقار المدارس إلى التجهيزات العلمية ومياه الشرب الصحية ووسائل الإيضاح والمكتبات ودورات المياه النظيفة. لكن كل هذا لم يزرع اليأس في نفسها، بل كان دافعا لها للتحرك في كل اتجاه طلبا للمساعدة. لم تكتف زكية بكل هذا، وإنما دفعها حبها للعمل من اجل بلدها فحسب إلى خوض أول انتخابات نيابية حرة في تاريخ أفغانستان قبل عامين، وهي الانتخابات التي لم تفز فيها، لكنها أبرزت مواهبها كانسانة واقعية تعرف ما تريد وتجيد مخاطبة الناخبين. من ذلك أنها لم تناقش في حملاتها الانتخابية قضايا الحجاب والخمار والسفور كغيرها، قائلة إنها أمور ثانوية من الأفضل تجاوزها إلى قضايا أهم مثل العنف المتفشي ضد المرأة، وتعليم الإناث الذي هو مفتاح الاستقلالية والشعور بالمساواة والاندماج في سوق العمل، وحماية الأرامل الكثر اللواتي فقدن دخولهن بمقتل أزواجهن في حروب العقدين الأخيرين من الإذلال والاستجداء في الشوارع، وتوفير الملاجيء اللائقة للأيتام والفقراء و المعوزين.